

كتاب التوبة

﴿ حقيقة التوبة ﴾

اعلم أن التوبة معنى ينتظم من ثلاثة أمور : علم . وحال . وفعل والأوّل موجب للثاني والثاني موجب للثالث إيجاباً اقتضاه سنة الله في الملائك والملائكوت . أما العلم فهو معرفة عظم ضرر الذنوب وكونها سموماً مهلكة وحجاباً بين العبد وبين كل محبوب . فإذا عرف ذلك معرفة صحيحة يمين غالبٍ على قلبه نار من هذه المعرفة تألم للقلب بسبب فوات المحبوب فإن القلب مهما شعر بفوات محبوبه تألم . فإن كان فواته بفعله تأسف على الفعل المفوت فيسمى تألمه بسبب فعله المفوت لمحبوبه ندماً فإذا غلب هذا الألم على القلب واستولى انبثت من هذا الألم في القلب حالة أخرى تسمى إرادة وقصدا إلى فعل له تعلق بالحال وبالماضي وبالاستقبال . أما تعلقه بالحال فبالترك للذنب الذي كان ملابساً . وأما بالاستقبال فبالعزم على ترك الذنب المفوت المحبوب إلى آخر العمر . وأما بالماضي فبتلافى ما فات بالخير والقضاء إن كان قابلاً للخير . فالعلم والندم والقصد المتعلق بالترك يطلق اسم التوبة على مجموعها . وكثيراً ما يطلق اسم التوبة على معنى الندم وحده ويجعل العلم كالمقدمة والترك كالثمره . وبهذا الاعتبار جاء في الأثر (الندم توبة) إذ لا يخلو الندم عن علم أوجبه وأثمره وعن عزم يتبعه ويتلوه *

﴿ بيان وجوب التوبة وفضلها ﴾

اعلم أن وجوب التوبة ظاهر بالأخبار والآيات وهو واضح بنور البصيرة عند من شرح الله بنور الايمان صدره فان من عرف أن لاسعادة في دار البقاء إلا في لقاء الله تعالى وأن كل محجوب عنه يشقى لا محالة محول بينه وبين ما يشتهي محترق بنار الفراق ونار الجحيم وعلم أن لا مبعث عن لقاء الله إلا اتباع الشهوات ولا مقرب من لقاءه إلا الأقبال على الله بدوام ذكره وعلم أن الذنوب سبب كونه محجوباً مبعثاً عن الله تعالى فلا يشك في أن الانصراف عن طريق البعد واجب للوصول الى القرب . وانما يتم الانصراف بالعلم والندم والعزم . وهكذا يكون الايمان الحاصل عن البصيرة ومن لم يترشح لهذا المقام فيلاحظ ماورد من الآيات والآثار فقد قال تعالى ﴿ وَتَوَبُّوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ وهذا أمر على العموم وقال تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تَوَبُّوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا ﴾ ومعنى النصوح الخالص لله تعالى خاليا عن الشوائب *

ويدل على فضل التوبة قوله تعالى ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ﴾ وقال عليه الصلاة والسلام ﴿ التَّائِبُ مِنَ الذَّنْبِ كَمَنْ لَا ذَنْبَ لَهُ ﴾ والأخبار في ذلك كثيرة *

﴿ وجوب التوبة على الفور وعلى الدوام ﴾

لا يخفى أن وجوبها على الفور أمر لا يستراب فيه إذ معرفة كون المعاصي

مهلكات من نفس الايمان وهو واجب على الفور والعلم بضرر الذنوب
 انما أريد ليكون باعثا على تركها فمن لم يتركها فهو فاقد لهذا الجزء من الايمان
 وهو المراد بقوله عليه الصلاة والسلام ﴿ لَا يَزِنِي الزَّانِي حِينَ يَزِنِي وَهُوَ
 مُؤْمِنٌ ﴾ وذلك لكون الزنى مبعداً عن الله تعالى موجبا للمقت كسائر المعاصي
 لأنها للايمان كالمأكولات المضرة للأبدان فكما أنها تغير مزاج الانسان
 ولا تزال تجتمع حتى تفسده فيموت دفعة كذلك تعمل سموم الذنوب بروح
 الايمان عملا تحق الكلمة عليه بأنه من الهالكين *

وأما وجوب التوبة على الدوام وفي كل حال فهو أن كل بشر فلا يخلو
 عن معصية بجوارحه . فان خلا في بعض الأحوال عن معصية الجوارح فلا
 يخلو عن الهم بالذنوب بالقلب . فان خلا في بعض الأحوال عن الهم فلا
 يخلو عن وسواس الشيطان بإيراد الخواطر المذهلة عن ذكر الله . فان خلا
 عنه فلا يخلو عن غفلة وقصور في العلم بالله وصفاته وأفعاله وكل ذلك نقص
 وله أسباب . وترك أسبابه بالتشاغل بضردها رجوع عن طريق الى ضده .
 والمراد بالتوبة الرجوع . ولا يتصور الخلو في حق آدمي عن هذا النقص
 وانما يتفاوتون بالمقادير فأما الأصل فلا بد منه ولهذا قال عليه السلام :
 ﴿ إِنَّهُ لَيُغَانُ عَلَى قَلْبِي حَتَّى أَسْتَغْفِرَ اللَّهَ فِي الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ سَبْعِينَ مَرَّةً ﴾
 الحديث ولذلك أكرمه الله تعالى بأن قال ﴿ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ
 ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ﴾ واذا كان هذا حاله فكيف حال غيره *

وانما أطلقنا الوجوب في كل حال والتوبة عن بعض ما ذكر من الفضائل

لا الفرائض لأننا نعنى بالواجب ما لا بد منه للوصول به الى القرب المطلوب من رب العالمين والمقام المحمود بين الصديقين والتوبة عن جميع ما ذكرناه واجبة في الوصول اليه كما يقال الطهارة واجبة في صلاة التطوع أى لمن تريدها فإنه لا يتوصل اليها إلا بها *

واعلم أنه قد سبق أن الانسان لا يخلو في مبدأ خلقته من اتباع الشهوات أصلا وليس معنى التوبة تركها فقط بل تمام التوبة بتدارك ما مضى وكل شهوة اتبعها الانسان ارتفع منها ظلمة الى قلبه كما يرتفع عن نفس الانسان ظلمة الى وجه المرأة الصقيلة فان تراكت ظلمة الشهوات صارت رينا كما يصير بخار النفس في وجه المرأة عند تراكمه خبثا كما قال تعالى ﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ فاذا تراكم الرين صار طبعا فيطبع على قلبه كالخبث على وجه المرأة إذا تراكم وطال زمانه غاص في جرم الحديد وأفسده وصار لا يقبل الصقل بعده وصار كالمطبوخ من الخبث ولا يكفى في تدارك اتباع الشهوات تركها في المستقبل بل لا بد من محو تلك الأريان التي انطبت في القلب . كما لا يكفى في ظهور الصور في المرأة قطع الأنفاس والبخارات المسودة لوجهها في المستقبل ما لم يشتغل بمحو ما انطبع فيها من الأريان وكما يرتفع الى القلب ظلمة من المعاصي والشهوات فيرتفع اليه نور من الطاعات وترك الشهوات فتتمحى ظلمة المعصية بنور الطاعة واليه الاشارة بقوله عليه السلام ﴿ اتَّبِعِ السَّيِّئَةَ الْحَسَنَةَ تَمَحُّهَا ﴾ فاذا لا يستغنى العبد في حال من أحواله عن محو آثار السيئات عن قلبه بمباشرة حسنات تضاد آثارها

آثار تلك السيئات *

ولقد صدق أبو سليمان الداراني حيث قال لو لم يبك العاقل فيما بقي من عمره إلا على تفويت ماضى منه في غير الطاعة لكان خليقا أن يحزنه ذلك الى الممات فكيف من يستقبل ما بقي من عمره بمثل ماضى من جهله وانما قال هذا لأن العاقل اذا ملك جوهرة نفيسة وضاعت منه بغير فائدة بكى عليها لاحالة وان ضاعت منه وصار ضياعها سبب هلاكه كان بكاءه منها أشد وكل ساعة من العمر بل كل نفس جوهرة نفيسة لا خلف لها ولا بدل منها فانها صالحة لأن توصلك الى سعادة الأبد وتنقذك من شقاوة الأبد . وأى جوهرة أنفس من هذا فاذا ضيعتها في الغفلة فقد خسرت خسرانا مبينا فان كنت لا تبكى على هذه المصيبة فذلك لجهلك ومصيبتك بجهلك أعظم من كل مصيبة . ونوم الغفلة يحول بينه وبين معرفته والناس نيام فاذا ماتوا انبهوا . فعند ذلك ينكشف لكل مفلس افلاسه ولكل مصاب مصيبته . وقد رفع الناس عن التدارك كما قال تعالى ﴿ وَأَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ وَلَنْ يُؤَخَّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا ﴾ وقد قيل في معنى الآية أنه يقول حالئذ يملك الموت أخرنى يوماً أتوب فيه الى ربي وأنزود صالحا لنفسي فيقول ففئت الأيام فلا يوم فيقول فأخرنى ساعة فيقول ففئت الساعات فلا ساعة فيغلق عليه باب التوبة فيتفرغ بروجه وتزهق نفسه ومثل هذا يقال ﴿ وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ

حتى إذا حضر أحدهم الموتُ قالَ إني تُبتُ الآنَ ﴿١﴾ وقوله تعالى ﴿٢﴾ إنما التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ ﴿٣﴾ معناه عن قرب عهد بالخطيئة بأن يتندم عليها ويمحو أثرها بحسنة يردفها بها قبل أن يتراكم الرين على القلب فلا يقبل المحو ولذلك قال صلى الله عليه وسلم ﴿٤﴾ أتبع السيئة الحسنة تمحها ﴿٥﴾ ومن ترك المبادرة إلى التوبة بالتسوية كان بين خطرين عظيمين (أحدهما) أن تتراكم الظلمة على قلبه من المعاصي حتى يصير رينا وطبعا فلا يقبل المحو (الثاني) أن يعاجله المرض أو الموت فلا يجد مهلة للاشتغال بالمحو فيأتي الله بقلب غير سليم ولا ينجو إلا من أتى الله بقلب سليم *

* بيان أن التوبة الصحيحة مقبولة *

اعلم أن التوبة إذا استجمعت شرائطها فهي مقبولة لا محالة فان نور الحسنة يمحو عن وجه القلب ظلمة السيئة كما لا طاقة لظلام الليل مع بياض النهار وكما أن استعمال الثوب في الأعمال الخسيسة يوسخ الثوب وغسله بالصابون والماء الحار ينظفه لا محالة فاستعمال القلب في الشهوات يوسخ القلب وغسله بماء الدموع وحرقة الندم ينظفه ويطهره ويزكاه . وكل قلب زكى طاهر فهو مقبول كما أن كل ثوب نظيف فهو مقبول فانما عليك التزكية والتطهير وأما القبول فمبدول قد سبق به القضاء الأزلي الذي لا مرد له وهو المسمى فلاحا في قوله ﴿٦﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ﴿٧﴾ *

فمن يتوهم أن التوبة تصح ولا تقبل كمن يتوهم أن الشمس تطلع والظلام

لا يزول والثوب يغسل بالصابون والوسخ لا يزول إلا أن يغوص الوسخ
 لطول تراكمه في تجاويف الثوب فلا يقوى الصابون على قلمه فمثال ذلك
 أن تتراكم الذنوب حتى تصير طبعا ورينا على القلب فمثل هذا القلب لا يرجع
 ولا يتوب نعم قد يقول باللسان تبت فيكون ذلك كقول القصار بلسانه قد
 غسلت الثوب وذلك لا ينظف الثوب أصلا ما لم يغير صفة الثوب باستعمال
 ما يضاد الوصف المتضمن به . فهذا حال امتناع أصل التوبة وهو غير بعيد بل
 هو الغالب على كافة الخلق المقبلين على الدنيا المعرضين عن الله بالكيفية *
 هذا البيان كاف عند ذوى البصائر في قبول التوبة ولكننا نعضد جناحه
 ببعض آيات وأخبار (فكل استبصار لا يشهد له الكتاب والسنة لا يوثق به)
 قال تعالى ﴿ غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ ﴾ وقال سبحانه ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ
 التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ ﴾ وقال صلى الله عليه وسلم ﴿ إِنَّ اللَّهَ
 عَزَّ وَجَلَّ يَبْسِطُ يَدَهُ بِالتَّوْبَةِ لِمُسَىءِ اللَّيْلِ إِلَى النَّهَارِ وَلِمُسَىءِ النَّهَارِ إِلَى
 اللَّيْلِ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا ﴾ وبسط اليد كناية عن طلب التوبة
 وقال صاوات الله عليه ﴿ التَّائِبُ مِنَ الذَّنْبِ كَمَنْ لَا ذَنْبَ لَهُ ﴾ *
 * بيان ما تكون عنه التوبة وهي الذنوب *

اعلم أن التوبة ترك الذنب . ولا يمكن ترك الشيء إلا بعد معرفته . وإذا
 كانت التوبة واجبة كان ما لا يتوصل إليها إلا به واجبا . فمعرفة الذنوب إذا
 واجبة . والذنب عبارة عن كل ما هو مخالف لأمر الله تعالى في ترك أو فعل *
 ثم أن مشاركات الذنوب تنحصر في أربع صفات صفات ربوبية وصفات

شيطانية وصفات بهيمية وصفات سبعية *

فأما ما يقتضى النزوع الى الصفات الربوية فمثل الكبر والفخروحب المدح والثناء وحب دوام البقاء وطلب الاستملاء على الكفاية حتى كأنه يريد أن يقول أنا ربكم الأعلى وهذا يتشعب منه جملة من كباثر الذنوب غفل عنها الخلق ولم يعدوها ذنوبا . وهى المهلكات العظيمة التى هى كالأهمات لأكثر المعاصى *

(الثانية) هى الصفة الشيطانية التى منها يتشعب الحسد والبغى والحيلة والخداع والأمر بالفساد والمنكر وفيه يدخل الغش والنفاق والدعوة الى البدع والضلال *

(الثالثة) الصفة البهيمية ومنها يتشعب الشره والحرص على قضاء شهوة البطن والفرج ومنه يتشعب الزنا واللواط والسرقة وأكل مال الأيتام وجمع الحطام لأجل الشهوات *

(الرابعة) الصفة السبعية ومنها يتشعب الغضب والحقد والتهمج على الناس بالضرب والشتم والقتل واستهلاك الأموال ويتفرغ عنها جمل من الذنوب *

فهذه أهمات الذنوب ومناهبها ثم تتفجر الذنوب من هذه المنابع على الجوارح فبعضها فى القلب خاصة كالكفر والبدعة والنفاق واضمار السوء للناس وبعضها على العين والسمع . وبعضها على اللسان وبعضها على البطن والفرج وبعضها على اليدين والرجلين . وبعضها على جميع البدن . ولا حاجة الى

بيان تفصيل ذلك فانه واضح *

﴿ انقسام الذنوب الى صفائر وكبائر ﴾

اعلم أن الذنوب تنقسم الى صفائر وكبائر . وقد كثر الاختلاف فيها فقال قائلون لاصغيرة ولا كبيرة بل كل مخالفة لله فهي كبيرة . وهذا ضعيف إذ قال تعالى ﴿ إِن تَجَنَّبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلِكُمْ مُدْخَلَ كَرِيمٍ ﴾ وقال تعالى ﴿ الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ ﴾ وقال بعض السلف كل ما أوعده الله عليه بالنار فهو من الكبائر . وقد روى عن الصحابة والتابعين في عدد الكبائر أقوال .

وذهب أبو طالب المسكي الى أنها سبع عشرة جمعها من الأخبار والآثار :

(أربعة في القلب) وهي الشرك بالله . والاصرار على معصيته . والقنوط من رحمته والأمن من مكره (وأربع في اللسان) وهي شهادة الزور . وقذف المحصن والسحر . واليمين الغموس . وهي التي يحق بها باطلا أو يبطل بها حقا وقيل هي التي يقطع بها مال امرء مسلم باطلا ولو سواكا من أراك سميت غموساً لأنها تغمس صاحبها في النار (وثلاث في البطن) وهي شرب الخمر والمسكر من كل شراب . وأكل مال اليتيم ظلماً . وأكل الربا وهو يعلم (واثنان في الفرج) وهما الزنا واللواط (واثنان في اليدين) وهما القتل والسرقه (وواحدة في الرجلين) وهو الفرار من الزحف أن يفر الواحد من اثنين والعشرة من العشرين (وواحدة في جميع الجسد) وهو عقوق الوالدين وجملة عقوقهما أن يقسما عليه في حق فلا يبر قسمهما

وان سألاه حاجة فلا يعطيها وأن يسأه فيضربهما ويجوعان فلا يطعمهما .
 هذا كلام أبي طالب وهو قريب إلا أنه لم يرد تفصيلها بعد ولا حد جامع
 بل ورد بالفاظ مختلفات والحق في ذلك أن الذنوب منقسمة في نظر الشرع
 الى ما يعلم استعظامه إياها والى ما يعلم أنها معدودة في الصغائر والى ما يشك فيه
 فلا يدري حكمه وربما قصد الشارع الابهام ليكون العباد على وجل وحذر
 فلا يتجرؤن على الصغائر . ثم أن اجتناب الكبيرة انما يكفر الصغيرة إذا
 اجتنبها مع القدرة والارادة كمن يتمكن من امرأة ومن مواتعتها فيكف نفسه
 عن الوقوع مجاهداً نفسه فان امتنع لعجز أو خوف فهذا لا يصلح للتكفير أصلاً .
 ﴿ بيان ما تعظم به الصغائر من الذنوب ﴾

اعلم أن الصغيرة تكبر بأسباب منها الاصرار والمواظبة ولذلك قيل
 لا صغيرة مع إصرار ولا كبيرة مع استغفار فكبيرة واحدة تنصرم ولا يتبعها
 مثلها يكون العفو عنها أرجح من صغيرة يواظب عليها العبد ومثال ذلك
 قطرات من الماء تقع على الحجر على توال فتؤثر فيه وذلك القدر لو صب
 عليه دفعة واحدة لم يؤثر ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ خير
 الأعمال أدومها وإن قل ﴾ ومنها أن يستصغر الذنب . فان الذنب كما
 استعظامه العبد من نفسه صغر عند الله تعالى : وكما استصغره كبر عند الله
 تعالى لأن استعظامه يصدر عن نفور القلب عنه وذلك النفور يمنع من شدة
 تأثيره به واستصغاره يصدر عن الألف به وذلك يوجب شدة الأثر في
 القلب . والقلب هو المطلوب تنويره بالطاعات والمخدور تسويده بالسئئات .

وقد روى أن المؤمن يرى ذنبه كجبل فوقه يخاف أن يقع عليه والمنافق يرى ذنبه كذبابٍ مرَّ على أنفه فأطاره . وكذلك يعظم من العالم ما لا يعظم من الجاهل ويتجاوز عن العاصي في أمور لا يتجاوز في أمثالها عن العارف . لأن الذنب والمخالفة يكبر بقدر معرفة المخالف ومنها السرور بالصغيرة والفرح بها فكما غلبت حلاوة الصغيرة عند العبد كبرت وعظم أثرها في تسويد قلبه كمن يقول أما رأيتني كيف مزّقت عرضه وكيف فضحتته حتى خجلته وكيف روّجت عليه الزائف وكيف خدعته فهذا وأمثاله مما تكبر به الصغائر فإن الذنوب مهلكات ومنها أن يتهاون بستر الله عليه وحلمه عنه وإمهاله لإيابه ولا يدري أنه إنما يمهل مقملاً ليزداد بالامهال إثماً فيظن أن تمكنه من المعاصي عناية من الله به . وذلك لأمنه من مكر الله وجهله بمكان الغرور بالله ومنها أن يأتي الذنب ويظهره بأن يذكره بعد اتيانه أو يأتيه في مشهد غيره فإن ذلك جناية منه على ستر الله الذي سدله عليه وتحريل الرغبة الشرفي من أسمعه ذنبه أو أشهده فعله فهما جنايتان انضمتا إلى جناية فتغلظت به فإن انضاف إلى ذلك ترغيب الغير فيه صارت جناية رابعة وتفاحش الأمر ومنها أن يكون المذنب عالماً يقتدى به فإذا فعله بحيث يرى ذلك منه كبر ذنبه وفي الخبر **مَنْ سَنَّ سِنَّةً سَيِّئَةً فَعَلَيْهِ وَزْرُهَا وَوَزْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا لَا يَنْقُصُ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيْئاً** وكما يتضاعف وزر العالم على الذنب فكذلك يتضاعف ثوابه على الحسنات إذا اتبعوا *

فحركات المقتدى بفعالهم في طوري الزيادة والنقصان . تتضاعف آثارها

إمّا بالرج وإمّا بالخسران *

﴿ تمام التوبة وشروطها ودوامها ﴾

ذكرنا أن التوبة عبارة عن ندم يورث عزمًا وقصدًا فالندم هو توجع القلب عند شعوره بفوات المحبوب . وعلامته طول الحسرة والحزن واسكاب الدمع والفكر . فمن استشعر عقوبة نازلة بولده طال عليه مصيبتة وبكاؤه . وأى عزيز أغر عليه من نفسه . وأى عقوبة أشد من النار . وأى سبب أدل على نزول العقوبة من المعاصي . وأى مخبر أصدق من الله ورسوله . ولو حدثته انسان واحد يتطرب أن مرض ولده لا يبرأ وأنه سيموت منه لاطال في الحال حزنه . فليس ولده بأعز من نفسه ولا الطبيب بأعلم ولا أصدق من الله ورسوله ولا الموت بأشد من النار . ولا المرض بأدل على الموت من المعاصي على سخط الله تعالى والتعرض بها الى النار فألم الندم كلما كان أشد كان تكفير الذنوب به أرجي . فعلامة صحة الندم رقة القلب وغزارة الدمع . ومن علامته أن تتمكن مرارة تلك الذنوب في قلبه بدلا عن حلواتها فيستبدل بالميل كراهية وبالرغبة نفرة كمن ينفّر عن عسل فيه سم ولو كان في غاية الجوع والشهوة للحلاوة . فوجدان التائب مرارة الذنب كذلك يكون وذلك لعلامة بأن كل ذنب فدوقه ذوق العسل وعمله عمل السم . ولا تصح التوبة ولا تصدق إلا بمثل هذا الايمان . ولما عزّ مثل هذا الايمان عزّت التوبة والتائبون . فلا ترى إلا معرضاً عن الله تعالى متهاوناً بالذنوب مصراً عليها . فهذا شرط تمام الندم . وينبغي أن يدوم الى الموت . وينبغي أن يجد

هذه المرارة في جميع الذنوب *

وأما القصد الذي ينبعث منه وهو ارادة التدارك فله تعلق بالحال وهو
يوجب ترك كل محذور هو ملابس له وأداء كل فرض هو متوجه عليه في
الحال وله تعلق بالماضى وهو تدارك ما فرط وبالمستقبل وهو دوام الطاعة
ودوام ترك المعصية الى الموت *

ومن أهم ما يجب تداركه الحقوق المالية فمن تناول ما لا ينصب أو خيانة
أو غبن في معاملة بنوع تليس كترويح زائف أو ستر عيب من المبيع أو
نقص أجرة أجير أو أكل أجرته فكل ذلك يجب أن يفتش عنهم ليستحلهم
أو ليؤدى حقوقهم لهم أو لورثتهم وليحاسب نفسه على الحبات والدوائق
قبل أن يحاسب في القيامة وليناقش قبل أن يناقش فمن لم يحاسب نفسه في
الدنيا طال في الآخرة حسابه فان عجز فلا يبقى له طريق إلا أن يكثر من
الحسنات بقدر كثرة مظالمه فهذا طريق كل تائب في رد المظالم الثابتة في
ذمته أما أمواله الحاضرة فليرد الى المالك ما يعرف له مالكا معينا وما
لا يعرف له مالكا فعليه أن يتصدق به فان اختلط الحلال بالحرام فعليه أن
يعرف قدر الحرام بالاجتهاد ويتصدق بذلك المقدار *

وأما الجناية على القلوب بمشاهدة الناس بما يسوؤهم أو بهيئهم في النية
فليطلب كل من تعرض له بلسانه أو آذى قلبه بفعل من أفعاله فمن وجدته
وأحله بطيب قلب منه فذلك كفارته ومن مات أو غاب أو تعذر استحلاله
فقد فات أمره ولا يتدارك إلا بتكثير الحسنات *

ومن مهمات التائب اذا لم يكن عالما أن يتعلم ما يجب عليه في المستقبل
وما يجرم عليه حتى يمكنه الاستقامة *

﴿ أقسام العباد في دوام التوبة ﴾

اعلم أن التائبين في التوبة على أربع طبقات

(الطبقة الأولى) أن يتوب العاصي ويستقيم على التوبة الى آخر عمره
فيتدارك ما فرط من أمره ولا يحدث نفسه بالعود الى ذنوبه إلا الزلات التي
لا ينفك البشر عنها في العادات فهذا هو الاستقامة على التوبة . وصاحبه
هو (السابق بالخيرات) المستبدل بالسيئات حسنات . واسم هذه التوبة
التوبة النصوح . واسم هذه النفس الساكنة (النفس المطمئنة) التي ترجع
الى ربها راضية مرضية *

(الطبقة الثانية) تائب سلك طريق الاستقامة في أمهات الطاعات وترك
كباثر الفواحش كلها الا انه ليس ينفك عن ذنوب تعثر به لا عن عمد
ولكن يتلى بها في مجارى أحواله من غير أن يقدم عنما على الاقدام عليها
ولكنه كلما أقدم عليها لام نفسه وندم وتأسف ووجد عزمه على أن يتشمر
للإحتراز من أسبابها التي تعرضه لها . وهذه النفس جديرة بان تكون هي
(النفس اللوامة) إذ تلوم صاحبها على ما يستهدف له من الاحوال الذميمة
لا عن تصميم عزم وقصد . وهذه أيضا رتبة عالية وان كانت نازلة عن الطبقة
الأولى وهي أغلب أحوال التائبين لان الشرّ معجون بطينة الآدمي قلما ينفك

عنه . وإنما غاية سعيه أن يغلب خيره شره حتى يثقل ميزانه فترجح كفة الحسنات فاما أن تخلو بالكافية كفة السيئات فذلك في غاية البعد . وهو لا لهم حسن الوعد من الله تعالى إذ قال تعالى ﴿ الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشِ إِلَّا اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ ﴾ فكل الإمام يقع بصغيرة لا عن توطين نفسه عليه فهو جدير بان يكون من اللام المغفور عنه . قال تعالى (وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَخَفُّوا لِدُنُوبِهِمْ) فإثنى عليهم مع ظلمهم لأنفسهم لتندمهم ولومهم أنفسهم عليه وفي الخبر لا بد للمؤمن من ذنب يأتيه الفيئة بعد الفيئة أي الحين بعد الحين وفي الخبر (كُلُّ بَنِي آدَمَ خَطَّائُونَ وَخَيْرُ الْخَطَّائِينَ التَّوَّابُونَ) فكل ذلك أدلة قاطعة على أن هذا القدر لا ينقض التوبة ولا يلحق صاحبها بدرجة المصرين (الطبقة الثالثة) أن يتوب ويستمر على الاستقامة مدة ثم تغلبه الشهوة في بعض الذنوب فيقدم عليها عن قصد لعجزه عن قهر الشهوة إلا أنه مع ذلك مواظب على الطاعات وتارك جملة من الذنوب وهو يودّ لو كفى شرها في حال قضاء الشهوة وعند الفراغ يتندم ويقول ليتني لم أفعله وسأتوب عنه وأجاهد نفسي في قهرها لكنه يسؤل نفسه ويسوف توبته يوماً بعد يوم . فهذه النفس هي التي تسمى (النفس المسوّلة) وصاحبها من الذين قال الله تعالى فيهم (وَأَخْرُوجُنَّ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا) فأمره من حيث مواظبته على الطاعات وكرهته لما تعاطاه مرجو فمسي الله أن يتوب عليه وعاقبته مخطرة من حيث تسويفه وتأخيره فرجما يختطف قبل التوبة

ويقع أمره في المشيئة ان تداركه الله بفضله ألحقه بالسابقين والا فيخشى عليه
 (الطبقة الرابعة) أن يتوب ويجرى مدة على الاستقامة ثم يعود الى مقارفة
 الذنب من غير أن يحدث نفسه بالتوبة ومن غير أن يتأسف على فعله بل
 ينهك انهماك الغافل في اتباع شهواته فهذا من جملة المصرين وهذه النفس
 هي النفس الأمارة بالسوء الفرارة من الخير ويخاف على هذا سوء الخاتمة
 وانتظاره مع هذه الحالة المغفرة من الله تعالى غرور فان المقصر عن الطاعة
 المصر على الذنوب النير السالك سبيل المغفرة المنتظر للغفران يعد عند أرباب
 القلوب من المقتوهين كما ان من خرب بيته وضيع ماله وترك نفسه وعياله
 جياعا يزعم انه ينتظر فضل الله بأن يرزقه كنزاً يجده تحت الأرض في بيته
 الخرب يعد عند ذوى البصائر من الحقى المغرورين . فطلب المغفرة بالطاعات
 كطلب العلم بالجهد والتكرار وطلب المال بالتجارة . والعجب من عقل هذا
 المقتوه وتروى حقايقه إذ يقول (ان الله كريم وجنته ليست تضيق على مثلى
 ومعصيتى ليست تضره) ثم تراه يركب البحار ويقتحم الأوعار في طلب
 الدينار . واذا قيل له ان الله كريم ودنانير خزائنه ليست تقصر عن فقرك .
 وكسلك بترك التجارة ليس يضررك . فاجلس في بيتك . فمساء يرزقك من
 حيث لا تحتسب . فيستحرق قائل هذا الكلام ويستهزئ به ويقول ما هذا
 الهوس . السماء لا تمطر ذهباً ولا فضة . وانما ينال ذلك بالكسب . هكذا
 قدره مسبب الأسباب وأجرى به سنته ولا تبديل لسنة الله . ولا يعلم
 المغرور ان رب الآخرة ورب الدنيا واحد . وان سنته لا تبديل لها فيما

جميعا وانه قد أخبر إذ قال (وَانْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى) فنعوذ بالله
من الضلال *

﴿ ما يفعله التائب بعد الذنب ﴾

اعلم أن الواجب على التائب ان كان مجرى عليه ذنب إما عن قصد
وشهوة غالبية أو عن المام بحكم الاتفاق هو أن يبادر الى التوبة والندم والاشتغال
بالتكفير بحسنة تضادها فان لم تساعد النفس على العزم على الترك لغلبة
الشهوة فقد عجز عن أحد الواجبين فلا ينبغي أن يترك الواجب الثاني وهو
أن يدرأ بالحسنة السيئة فيمحوها فيكون ممن خلط عملا صالحا وآخر سيئاً
فالحسنات المكفرة للسيئات إما بالقلب وإما باللسان وإما بالجوارح ولكن
الحسنة في محل السيئة وفيما يتعلق بأسبابها فأما بالقلب فليكفره بالتضرع الى
الله تعالى في سؤال المغفرة والعفو ويتدلل بتدليل العبد الآبق ويخفض من
كبره فيما بين العباد وكذلك يضر بقلبه الخيرات للمسلمين والعزم على
الطاعات وأما باللسان فبالاعتراف بالظلم والاستغفار فيقول (رب ظلمت نفسي
وعملت سوءاً فاغفر لي ذنوبي) وكذلك يكثر من ضروب الاستغفار المأثورة
وأما بالجوارح فبالطاعات والصدقات وأنواع العبادات وبالجملة فينبغي أن
يحاسب نفسه كل يوم ويجمع سيئاته ويجهد في دفعها بالحسنات .

واعلم انه ليس كل استغفار نافعا ففي خبر (المستغفر من الذنب وهو مصر
عليه كالمستهزئ بآيات الله) وقال بعض السلف . الاستغفار باللسان توبة
الكذابين وقالت رابعة . استغفارنا يحتاج الى استغفار كثير . وذلك لان

الاستغفار الذي هو توبة الكذابين هو الاستغفار بمجرد اللسان من غير أن يكون للقلب فيه شركة كما يقول الانسان بحكم العادة وعن رأس الغفلة أستغفر الله وكما يقول اذا سمع صفة النار نهود بالله منها من غير أن يتأثر به قلبه وهذا يرجع الى مجرد حركة اللسان ولا جدوى له فأما اذا انضاف اليه تضرع القلب الى الله تعالى وابتهاله في سؤال المغفرة عن صدق إرادة وخواص نية ورغبة فهذه حسنة في نفسها فتصلح لان تدفع بها السيئة وعلى هذا تحمل الأخبار الواردة في فضل الاستغفار حتى قال صلى الله عليه وسلم لا ما أصر من استغفر ولو عاد في اليوم سبعين مرة ثم ان للتوبة ثمنتين (أحدهما) تكفير السيئات حتى يصير كمن لا ذنب له

(والثانية) نيل الدرجات . وللتكفير أيضا درجات فبعضه محو لأصل الذنب بالكلية وبعضه تخفيف له ويتفاوت ذلك بتفاوت درجات التوبة فالاستغفار بالقلب والتدارك بالحسنات وان خلا عن حل عقدة الاصرار فليس يخلو عن الفائدة أصلا فلا ينبغي أن تظن أن وجودها كعدمها فانه لا يخلو ذرة من خير عن أثر كما لا يخلو شميرة تطرح في الميزان عن أثر . فإياك أن تستصغر ذرات الطاعات فلا تأتيها وذرات المعاصي فلا تنفيها فاذا التضرع والاستغفار بالقلب حسنة لا تضيع عند الله أصلا بل أقول الاستغفار باللسان أيضا حسنة إذ حركة اللسان بها عن غفلة خير من حركة اللسان في تلك الساعة بغية مسلم أو فضول كلام فراغبة بقولها استغفارنا يحتاج الي استغفار كثير . لا تظن انها تدم حركة اللسان من حيث انه ذكر

الله بل تدم غفلة القلب فهو محتاج الى الاستغفار من غفلة قلبه لامن حركة لسانه
﴿ دواء التوبة وطريق العلاج لحل عقدة الاصرار ﴾

اعلم أن شفاء التوبة لا يحصل إلا بالدواء وكل داء حصل من سبب
فدواؤه إبطاله ولا يبطل الشئ إلا بضده ولا سبب للاصرار إلا الغفلة
والشهوة ولا يضاد الغفلة إلا العلم ولا يضاد الشهوة إلا الصبر على قطع
الأسباب المحركة للشهوة *

وأما الانواع النافعة في حل عقدة الاصرار وحمل الناس على ترك الذنوب
فهي أربعة أنواع (الاول) أن يذكر ما في القرآن من الآيات المخوفة
للمذنبين والمعاصين وكذا ماورد من الاخبار والآثار في ذم المعاصي ومدح
التائبين (الثاني) حكايات الأنبياء والسلف الصالحين وما جرى عليهم
من المصائب بسبب ذنوبهم فذلك شديد الوقع ظاهر النفع في قلوب الخلق
مثل أحوال آدم صلى الله عليه وسلم في عصيانه وما لقيه من الاخراج من
الجنة ونحوها فانه لم يرد بها القرآن والاخبار ورود الاسمار بل الغرض بها
الاعتبار والاستبصار لتعلم ان الانبياء عليهم السلام لم يتجاوز عنهم في الذنوب
الصغار فكيف يتجاوز عن غيرهم في الذنوب الكبار فهذا أيضا مما ينبغي
أن يكثر جنسه على اسماع المصرين فانه نافع في تحريك دواعي التوبة *

(الثالث) أن يقرر عندهم ان تعجيل العقوبة في الدنيا متوقع على
الذنوب وان كل ما يصيب العبد من المصائب فهو بسبب جنائياته فينبغي أن
يخوف به . وفي خبر ﴿ إِنَّ الْعَبْدَ لَيُحْرَمُ الرِّزْقَ بِالدَّنْبِ يُصِيبُهُ ﴾ وقال

بعض السلف . ليست اللعنة سواداً في الوجهه وتقصانا في المال انما اللعنة أن لا تخرج من ذنب إلا وقعت في مثله أو شر منه . وهو كما قال لان اللعنة هي الطرد والابعاد فاذا لم يوفق للخير ويسر له الشر فقد أبعد . والحرامان عن رزق التوفيق أعظم حرمان . وكل ذنب فانه يدعو الى ذنب آخر ويتضاعف فيحرم العبد به عن رزقه النافع من مجالسة العلماء المنكرين للذنوب ومن مجالسة الصالحين بل يمقته الله تعالى ليمقتهم الصالحون وبالجملة فلاخبار كثيرة في آفات الذنوب في الدنيا فمن ابتلى بشئ منها كان عقوبة له وان أصابته نعمة كانت استدرجاله ويحرم جميل الشكر حتى يعاقب على كفرانه وأما المطيع فمن بركة طاعته أن تكون كل نعمة في حقه جزاء على طاعته ويوفق لشكرها وكل بلية كفارة لذنوبه وزيادة في درجاته (الرابع) ذكر ما ورد من العقوبات على آحاد الذنوب كالخمر والزنا والسرقه وغير ذلك *

والمدار في هذا الباب على الفكر النافع وهو الفكر في عقاب الآخرة وأهوالها وشدائدها وحسرات العاصين في الحرمان عن النعيم المقيم وليعتبر بانه لو مرض فأخبره طبيب نصراني بان شرب الماء البارد يضره ويسوقه الى الموت وكان الماء البارد ألد الأشياء عنده تركه مع أن الموت أمله لحظة ومفارقته للدنيا لا بد منها فيقول كيف يليق بعقلي أن يكون قول الأنبياء المؤيدين بالمعجزات عنده دون قول نصراني طبيب يدعى الطب بلا معجزة على طبه وكيف يكون عذاب النار عندي أخف من عذاب المرض وكل يوم في الآخرة بمقدار خمسين ألف سنة من أيام الدنيا . ومتى استشعر قلبه

ذلك انبعث خوفه واذا قوى الخوف تيسر بهوته الصبر . وتوفيق الله
وتيسيره من وراء ذلك . فمن أعطى من قلبه حسن الاصفاء واستشعر
الخوف فاتقى وانتظر الثواب وصدق بالحسنى فسييسره الله تعالى لليسرى وأما
من بخل واستغنى وكذب بالحسنى فسييسره الله للعسرى فلا يغنى عنه
ما اشتغل به من ملاذ الدنيا مهما هلك وتردى وما على الأنبياء إلا شرح
طرق الهدى وانما الله الآخرة والاولى *

كتاب الصبر والشكر

﴿ فضيلة الصبر ﴾

قد وصف الله تعالى الصابرين بأوصاف وذكر الصبر في القرآن في
نيف وسبعين موضعا وأضاف أكثر الدرجات والخيرات الى الصبر وجعلها
ثمرة له فقال عز من قائل (وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أُمَّةً يَهْتَدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا)
وقال تعالى (وَلَيَجْزِينَ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)
وقال تعالى (أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا) وقال تعالى (إِنَّمَا
يُؤْتِي الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ) فما من قرينة إلا وأجرها بتقدير
وحساب إلا الصبر ووعده الصابرين بانه معهم فقال تعالى (إِنَّ اللَّهَ مَعَ
الصَّابِرِينَ) وجمع لهم بين أمور لم يجمعها لغيرهم فقال تعالى (أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ
صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ) ومن الاخبار قوله صلى
الله عليه وسلم (الصبر نصف الايمان) وسئل صلى الله عليه وسلم عن